الى ابنتي هيفاء

بقلم : الاستاذ محمود محمد الحبيب

« مهداة الى الآباء الذين أشقاهم ذلك الصراع العنيف المتمثل في الغيرة بين الاطفال »

كانت طفلتي الصغيرة « هيفاء » تودع شهرها الرابعة عشر فرحة مغتبطة . إذ هي الملكة المتوجة على عرش بيت أبويها تحكم في كل شيء ، وقد تكامنت لرغباتها وابتساماتها عواطفها وآمالها وقلباها ؛ لذلك كانت في عالم مرح من عوالم الطفولة السعيدة .. الا انها لم تكن تتوقع حلول طارق جديد يشاركها في مملكتها الصغيرة لتتألم ؛ ولكن أبواها هما اللذان حملا عنها هذا الألم ، وباتا لا يفكران الا في ذلك اليوم الذي تحس فيه هيفاء بقدوم هذا الطارق .

وفي مساء ١٢ كانون الاول ٩٤٦ كانت دارنا تموج بالأقارب فقد دقت الساعة التي اصبح فيها والداً لمخلوق ثان رغم اني لم اتعد الرابعة والعشرين .

كنت احتضن « هيفاء » وقد تنازعتني افكار مضطربة مشوشه . وكنت انمها بجنون وأنا اكفكف الدموع الندية . لقد ابيت آن انير الغرفة التي انزويت فيها بعد منتصف الليل ، لأني اخشى ان تقع عيناي على وجهها المتقع . كنت احثها على النوم بينما هي تقاومني وتصرخ بشدة « أم .. أماه .. أم » وتتبع ذلك بحركات عصبية واطمات عنيفة على وجهي وشعري .. كانت تتساءل بعباراتها المبهمة « لِمَ اخذوها عنوة من سريرها وما سر هذه الجلبة والضوضاء في تلك الغرفة ؟ لماذا تتأوه وتئن امها ؟ »

لقد كانت لكل صرخة من امها صدى عميق في قلبها فتصرخ بدورها « أم .. أماه .. أم » ثم تحاول التملص من قبضتي بركلات قوية . فاحس بالراحة لضرباتها تلك لأنها بعض ما استحق من مليكتي الصغيرة .. وعلى حين غرة تعالت صرخة صغيرة ناعمة ذات نغم وموسيقى ، فهزت كياني هزاً عنيفاً .. لقد بت أباً لمخلوقين . فابتسمت ابتسامة شاحبة ، وطفرت الدموع من عيني لقد انقلب احساسي نحو مصدر واحد هو صغيرتي هيفاء .. شعرت انها قد سكتت سكون الموتى وراحت ترهف سمعها نحو مصدر الصوت . ثم اخذ جسدها يختلج لكل صرخة من صرخات شقيقتها الجديدة التي استقبلت الحياة والنور قبل دقائق ولم تلبث ان انتابتها موجة بكاء شديد ابكتني وآلمت امها التي سمعتها من بعيد .. ومنذ ذلك اليوم بدأت فصول تلك المسرحية الهائلة . لقد انطوت صفحات خمسة اشهر و« هيفاء » منطوية على نفسها فقد فارقت مباهج حياتها الاولى ، وزهدت في كل شيء كان محبباً لديها .. ان وزنها لم يزد مطلقاً . والناظر اليها يحسبها في شهرها الخامس .. كل ذلك لأنها شعرت بالكراهية نحو اختها المسكينة

اول شيء فقدته هو اللبن الطبيعي ، اذا استعضنا بدله اللبن المعلب الذي لن يفي معشار ما يمنحه الطبيعي للطفل . ثم سريرها الهزاز ؛ لماذا منحوه عن قبول ورضى لتلك المخلوقة الحمراء التي لفت بالقماش ، واكتفوا بأن يرقدوها على سرير آخر ثابت لا يتحرك

انها لتشخص دائما اليه وفي صفاء عينيها الف سؤال يتواثب وتلك دمياتها الصغيرة !! لقد غدت نهباً موزعاً بينها وبين الدخيلة الطارئة . كم كانت تحس بالغيظ وهي تزجر وتستخرج حصانها القطني من بين اصابع الغريمة . ان همهماتها لتفصح عن أشد انواع الاستنكار . وتتخذ استنكارها دور الجد حين تهاجم اختها المستسلمة لسلطان الكرى ، وتدس اصابعها بشدة في عينيها ووجهها . أو تحاول ان تشد شعرها وهي تقهقه فرحة لعذابها وبكائها المرير . وكثيراً ما كانت تزحف نحوها ووجهها تكسوه الصفرة طابعاً حزيناً ، فتمد اظافرها وتترك لها آثاراً في خدي الصغيرة المسماة « وفاء » فتصرخ هذه للتخلص منها ، ولكن عبثاً فاللطمات تنهال على الرضيعة المسكينة حتى يهيء الله لها من ينقذها.

يا لها من اشهر مؤلمة لي ولأم الحزينة . لقد اعتورت حياتنا آلام نفسية لا تطاق .. اننا لا نتمكن من مداعبة « وفاء » ولا مكالمتها بل حتى الابتسامة لأن عينين ساهرتين ترقباننا عن كثب وتحاسباننا حسابا عسيرا . وقد انتهز فرصة سانحة فاطبع قبلة عميقة على جبين وفائي اودعها هذا الخضم المكبوت من عواطفي الحبيسة فاشعر بأن ركاما قد ازيل عن صدري .

لك الله يا هيفاء ... ما هذه الغيرة الساحقة ؟ رحمة بقلبك الغض يا بنيتي من هذه الافعى التي صرعت مئات من امثالك . انها اختك ، ولها حق كفلك ، وحرام عليك ان تهجمي على امك في الدقيقة التي ترضع شقيقتك لتقصيها عن احضانها ولتحتلي مكانها بينما هي في صراخ يفتت الاكباد من شدة الجوع . وحرام عليك أن تتناولي مقصاً مدبباً وتحاولي دسه في عينها ، لو لم تفاجئك

امك فتنتشل المسكينة التي كادت أن تفقد نور الحياة لمجرد انك غيورة لا تودين وجودها في البيت . وحرام انك تغتصبين كل ثوب جديد لها ؛ إذ يخيل اليك انه قد سلب من خزانة ثيابك التي جعلت من نفسك حارساً لها ضد كل مغتصب .. وحرام يا « هيفاء » ان تظهري كل حركة حبيبة الى القلوب ؛ وتغني شتى الأغنيات التي يفهمها من في سنك ، وان كان يطربنا منها اللحن والأيقاع . كل ذلك لتفوزي برضى الجدين والاعمام والاصدقاء فيميلوا اليك ويحتضنوك باشتياق ؛ وهم يجارونك في كراهيتك ويصفون غريمتك بنعوت تحط من شأنها ، فتجدين لذلك هوى في نفسك ، فترسلين قبقهات مرحة سعيدة يحسبونها صادرة من قلب يتسع لمباهج الطفولة وان كنت بدوري اعلم انها لا تتعدى رقصة الطير المذبوح ... وحرام عليك حين هاجمت اختك وحاولت انتزاع القرط الذهبي من اذنها ظناً منك بأنه يخسك فتركتها تتلوى من الالم نصف ساعة . وما كانت بالسارقة ولكنها الغيرة تستفحل بقلبك الصغير وتنفث سمها قطرة فقطرة

لم يا ابنتي تحرمينني من احتضانها بعد عودتي مرهق الاعصاب من التعليم ومن مشاق الدروس وشيطنة الصغار ؛ فأود ان انسى اتعابي في قبلة محمومة ؛ وفي ضمة حنون منكما يا فلذة كبدي . فتأبين إلا ملازمتي والجلوس في احضاني لا ترمين ولا تحركين ؛ خوفا من أن اخادعك فاعرج نحوها .. نحو المحرومة من كل عطف ابوي .

لقد تطور هذا الخاطر فاصبح عقيدة عندك فقيدتني حتى عن المطالعة وكتابة القصص والمواضيع ، وهما ألذ شيء لي في الحياة .. لقد رأيت منها عدواً كعدوتك إذ انها يسلبك اهتمامه وحديثه ؛ فافسدت عليه حتى المتعة الروحية ، وسلبتيه جزءاً من استقلاله الذي يعتز به .

ان نظراتك الحزينة ، ووجومك المخيف ليصرخ وينادي « كيف اعيش بهناء مع هذه المخلوقة القذرة البكاءة ؟ ليتكم أبعدتوها عني فترموها خارج الدار اني اكرهها واحتقرها ، . . ان رؤياها يشقيني ؛ أفلم تصبح مقاسمتي حبكما وعطفكما . ألم تتعهداها بالحنو والرأفة ؟ . لن اطيقها بل لن اطيقكم ان حاولتم التقرب منها » .

بنيتي : كم دفنت رأسي المكدود بين يدي ليقتطع عن سمعي نواحك في الليالي . ولكني أحس بالفشل . فانت ان يقنعك

أي عمل سلبي . . انك جبارة عاتية تريدين ازاحتها نهائياً من الطريق . ان النيرة قد تشربت في دمك وكيانك ، فاصبحت تتوجعين وتتألمين وتنفعلين لكل حادث . . اني ارثي لك من الاعماق . . تحاولين اظهار جبروتك وقوتك واحتقارك وبغضك بصورة مجسمة ، ولكنها تموجات زائفة لأن ظلمك قد كلفك غالياً . كلفك صحتك ونموك فقد تأخرا وبدأ جسمك يضمر بدل الانتعاش . وقد سبقك من هم دونك سناً واستطاعوا الوقوف والمشي بينما أنت قد صرفت قواك لمحاربة اختك ، فلم ترمنك إلا مخلوقة هزيلة صفراء لا تستطيع الوقوف دقيقة واحدة . بل كلما تستطيعه هو الزحف على عجيزتها بضع خطوات ثم ترسل بكاء يستدر الرحمة . مسكينة انت يا صغيرتي تجاه هذه الاقمى الظلوم التي تنهشك في كل حين . فهل سيظل عذابك يحطمك جزء فجزء وليس لنا من قوة ترد هذا الاعتداء ؟ خذي منا كل شيء . لك حبنا وعطفنا . لك هدايانا ووادنا .. فامنحينا بعض الشيء من الراحة ، لأن حربك هذه تضر بالي ، وعزيز علينا ان نراك ذابلة في ربيع العمر . انت الزهرة الاولى التي تفتحت في عالم حياتنا فلم لا تنفحين عطراً تسكر به ارواحنا وتنتشي قلوبنا ، وترفعنا الى عوالم وادعة من عيش جميل .

بنيتي هيفاء : تتخذ الكثيرون من الآباء في مثل هذا الموقف ، طرقا شتى لقطع النسل . ولكني انسان اخاف معصية الله ، فكيف اورد هبة سامية تمنحنيها السماء ؟ لست منهم ، لأنهم يجبنون من المسؤولية ويخافون حياة تضج بالصغار . اني سعيد بك وبشقيقتك وبكل مولود تباركه العناية وتقدمه ليكون قطعة من كبدي . ولكني مع كل هذا ؛ حزين لأنك قد ارتميت في لجة من عذاب الفكر ؛ فشقوت واشقيت أبويك من بعد .

اني حين اسطر هذه الكلمات في مذكراتي ، اشعر بانها بعض مني لأنها قد استقيت من معين الالم . وكلما آمل ان تدركي يوماً ما اذا أحببت الادب كأبيك مقدار ما تعذبت حينما تطالعين هذه السطور .

وختاما أيتها « الهيفاء » لتحرسك السماء وتسكب في اعماقك الهدوء والطمأنينة ، وتصل ما بين قلبك وشقيقتك باواصر المحبة الصادقة ليذوق أبواكما طعم السعادة . السعادة التي توارت في الضباب ؟

البصرة

محمود محمد الحبيب